ويقول الماوردي :

أعلم أن الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة ، كما قالت العرب في أمثالها : تخبر عن مجهوله مرآته وكما قال سلم ابن عمرو الشاعر : لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهة شاهد من خبر .

فسمة الخير : الدعة والحياء .

وسمة الشر : القحة والبذاء .

وكفى بالحياء أن يكون على الخير دليلاً وكفى بالقحة والبذاء شراً أن يكون إلى الشر سبيلاً [1] .

ويقول ايضاً : والسبب الخامس من الحياء ، الاستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء .

احتمال السفيه خير من التحلي بصورته والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته [2] .

وأنشد النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

والعرب تقول : دخل بيتاً ما خرج منه .

أي إن خرج منه خيراً دخله خير وإن خرج منه شراً دخله شر [3].

ويقول : الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتاجه لأنه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول على العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة [4].

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ، ص٢١١ : ١٢١ .
(٢) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٢١٧ .
(٣) المرجع السابق : ص٢١٩ .
(٤) المرجع السابق : ص٢٢٤ .

الإرادة وأفعالها في فكر الماوردي :

للإرادة دور هام في الميدان الأخلاقي لدى الماوردي ، ومن أجل ذلك نجده في نتاجه الفكري قد عني بها عناية بالغة وأفسح لها ميداناً شاسعاً في نتاجه العلمي واهتم ببيان مدلول الإرادة الإنسانية وأهميتها وأفعالها ومصادر فعلها والبواعث الدافعة لها والداعية إليها ولذا نجده يؤكد ويقرر : أن فعل الإرادة إما يصدر عن عقل أو رأي أو هوى .

والإرادة حادثة عن أحد هذه الثلاثة .

والعقل والرأي هما أساس وعلة للفضائل والالتزام بها .

والعقل والرأي مؤتلفان ، ويفرق بين العقل والرأي من وجهين :

الأول : أن العقل ما يتعلق به الصواب من الخطأ (١) ، والرأي غلبة الظن في ترجيح الصواب على الخطأ ، فالرأي سابق أو يأتي قبل العقل إذ به يكون الظن أو الترجيح أما العقل فيقين أي تعيين الصواب من الخطأ .

والثاني : أن العقل هو الموجب لأمر لا يجوز خلافه ، والرأي هو سكون النفس إلى ترجيح أمر يجوز خلافه (٢) ، فالرأي قبل العقل ومحتاج إليه ، أما العقل فمستقل بحكمه والرأي معترض يستمد العقل ويستضيء بنوره (٣) .

ثم يقول أيضاً : ولئن كان العقل مستقلاً ببصيرته فقد يزداد بالتجارب تيقظاً ، وبممارسة الأمور تحفظاً ، فلا يلتبس عليه حزم ولا ينقض عليه عزم (٤) .

ويؤكد الماوردي مبيناً أسس الالتزام الأخلاقي ويجعل العقل والرأي أساسه ويتكامل العقل بالالتزام بالدين بمعنى ، ضرورة الدين الإلهي لاستثارة العقل وضرورة العقل لفهم الدين والإرادة ناتجة عن عقل مستضيء بنور كلمة الدين الإلهي فالعقل أس الفضائل والهوى أس الرذائل لارتباطه بالشهوة والفرق بين

---

(١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر : للماوردي ص٢٣ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق : ص٢٣ .
(٣) المرجع السابق : ص٢٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص٢٥ .

الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو كما يقول : الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي أخص والهوى أصل وأعم [1]. ولئن كان الماوردي يجعل من الهوى مضاداً ومانعاً من التفكير الجيد فإنه يجعله مضاداً للالتزام الأخلاقي ولذا ينبه ناصحاً . فيقول (واما الهوى فهو عن الخير صاد والعقل مضاد ، ولأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكاً ، ومدخل الشر مسلوكاً ... ولما كان الهوى غالباً وإلى سبيل المهالك مورداً جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً يلاحظ عثرة غفلته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لأن سلطان الهوى قوي ومدخل مكره خفي ومن هذين الوجهين يؤتي العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه أعني بأحد الوجهين : قوة سلطانه وبالآخر : خفاء مكره فأما الوجه الأول فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولي عليه غلبة الهوى والشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها ، وهذا يكون في الأحداث أكثر وعلى الشباب أغلب لقوة شهوتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم [2]ويقول أيضاً في كتابه (تسهيل النظر وتعجيل الظفر) ، وليجهدن أن لا يجعل لنفسه في الهوى نصيباً) [3] ، وذلك لأن الإرادة ترتبط إما بعلو الاختيار بصحته وأما بهبوطه وعدم صحته واختيارها الصحيح نتيجة إعمال عقل وروية وفكر ناتج عن الالتزام بالدين ، وأما الاختيار الفاسد غير الصحيح فلارتباطها بالهوى والشهوة فالأول ارتباط بالأعلى والثاني ارتباط بالأسفل .

رياضة النفس وأدبها في فكر الماوردي :

إن الطريق لتحصيل الخلق الفاضل الذي تنشأ عنه الأفعال الجميلة هو معرفة النفس الإنسانية ومعرفة قواها وملكاتها وغاياتها التي فيها كمالها .

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٢٢ .
(٢) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص١٧ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق ص٢٦ .

وخلافة الإنسان في الأرض تستحق بالسياسة وذلك بتحري مكارم الشـــريعة .

والسياسة ضربان ، أحدهما : سياسة الإنسان نفسه وبدنه وما يختص به ، والثاني : سياسة غيره من ذويه وسائر الناس ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ولهذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره وهو غير مهذب في نفسه .

قال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١)، **وقال عز وجل :** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

أي عليكم تهذيب النفس قبل الترشيح لتهذيب نفوس غيركم ومكارم الشريعة مبدؤها طهارة النفس ، ولا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسه ونجسه ، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة ، لكن نجاسة البدن تدرك بالبصر ، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل ، ولهذا قيل : من طابت نفسه طاب عمله ، ومن خبثت نفسه خبث عمله ، والذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث :

قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم .

قوة الشهوة بكبحها حتى تحصل العفة والجود .

قوة الحمية بإسلاسها حتى تنقاد للعقل فتحصل الشجاعة والحلم ويتولد من اجتماع ذلك العدالة فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث :

أما فساد الفكرة فيتولد منه الخُبث والبله وأما فساد القوة الشهوية فيتولد منه الشره أو خمود الشهوة .

وأما فساد الحمية فيتولد منه التهور أو الجبن .

---

(١) سورة البقرة : الآية (٤٤) .
(٢) سورة المائدة : الآية (١٠٥)

ومن حصول هذه الأشياء أو حصول بعضها يحصل إما الظلم وإما الإنظلام ، فجميع أصول الفضائل الخلقية أربعة ،وجميع الرذائل الخلقية ثمانية .

ومن ثم لزم على الإنسان رياضة نفسه ، وفي هذا الشأن يحدثنا الإمام الماوردي فيقول : ورياضة نفسك – على ترك الدنيا – لذلك تترتب على أحوال ثلاث ، وكل حالة منها تتشعب ، وهي لتسهيل ما يليها سبب :

فالحالة الأولى : أن تصرف حب الدنيا عن قلبك ، فإنها تلهيك عن آخرتك ، ولا تجعل سعيك لها ، فتمنعك حظك منها ، وتوق الركون إليها ، ولا تكن أمثالها ، فإذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت ، واعتصمت منها بثلاث خلال :

إحداهن : أن تكفي إشفاق المحب ، وحذر الوامق ، فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة .

والثانية : أن تأمن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها ، فإن اللاهي بها مغرور والمغرور فيها مذعور .

والثالثة : أن تستريح من تعب السعي لها ، ووصب الكد فيها ، فإن من أحب شيئاً طلبه ومن طلب شيئاً كد له ، والمكدود فيها شقي إن ظفر ، ومحروم إن خاب .

الحالة الثانية من أحوال رياضتك لها : أن تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها ، وأنالتك من غرائبها ، فتعلم أن العطية فيها مرتجعة ، والمنحة فيها مستردة بعد أن تبقى عليك ما احتقبت من أوزار ووصولها إليك ، فإذا روضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضدت منها ثلاث خلال :

إحداهن : نصح نفسك وقد استسلمت إليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك ، فإن من غشي نفسه مغبون ، والمنحرف عنها مأفون .

والثانية : الزهد فيما ليس لك، لتكفي تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه .

والثالثة : انتهاز الفرصة في مالك أن تضعه في حقه ، وأن تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخراً ، ولا يكون عليك وزراً .

والحالة الثالثة : من أحوال رياضتك لها : أن تكتشف لنفسك حال أجلك، وتصرفها عن غرور أملك ، حتى لا يطيل لك الأمل أجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا . فإذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت ، اعتضدت منها ثلاث خلال .

إحداها : أن تكفى تسويف أمل يرد بك ، وتسويف محال يؤذيك ، فإن تسويف الأمل غرار ، وتسويف المحال ضرار.

والثانية : أن تستيقظ لعمل آخرتك ، وتغتنم بقية أجلك ، بخير عملك فإن من قصر أمله واستقل أجله ، حسن عمله.

والثالثة : أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ، ويسهل عليك حلول ما ليس إلى دفعه سبيل ، فإن من تحقق أمراً توطأ لحلوله فهان عليه عند نزوله [1] .

وكما يلزم الإنسان رياضة نفسه على ترك الدنيا ، فإنه ينبغي عليه بضرورة تأديبها وفي هذا الشأن يقول الماوردي :

أعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة ، لا يستغني محمودها عن التأديب ، ولا يكتفي بالمرضى منها عن التهذيب ، لأن لمحمودها أضداداً مقابلة ، يمدها هوى مطاع وشهوة غالبة ، فإن أغفل تأديبها تفويضاً إلى العقل أو توكلاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين ، وأعقبه التكول ندم الخائبين ، فصار من الأدب عاطلاً ، وفي صورة الجهل داخلاً ، لأن الأدب مكتسب بالتجربة ، أو مستحسن بالعادة ، ولكل قوم مواضعة ، وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ، ولا بالانقياد للطبع ، حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ، ويستفاد بالدربة والمعاطاة ، ثم يكون العقل عليه

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ، ص٨٩ وما بعدها .

قيما ، وزكى الطبع إليه مسلماً ، ولو كان العقل مغنياً عن الأدب ، لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنيين ، وبعقولهم مكتفين ، والتأديب يلزم من وجهين :

أحدهما : ما يلزم الوالد لولده في صغره .

والثاني : ما لزم الإنسان في نفسه عند نشأته وكبره .

فأما التأديب اللازم للأب فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها وينشأ عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمبادئها في الصغر لأن نشأة الصغير على الشيء تجعله متطبعاً به ، ومن أغفل في الصغر ، كان تأديبه في الكبر عسيراً .

وأما الأدب اللازم للإنسان عند نشأته وكبره فأدبان :

أدب مواضعه واصطلاح فيؤخذ تقليداً على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الأدباء .

وأدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولاً على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ، ولا أن تختلف العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ، ووضوح صحته بالدليل مرتبط ، وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى إرشاداً لها .

وأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح :

أن لا يسبق إلى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوئ أخلاقه لأن النفس بالشهوات أمارة وعن الرشد زاجرة ، وما يلزم مراعاته من الأخلاق ويجب معاناته من الأدب كما قال الماوردي .

مجانبة الكبر والإعجاب لأنهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل .

وحسن الخلق ، فإذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الأمور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب .

والحياء .

والحلم والغضب .

والصدق والكذب .

والحسد والمنافسة .

وأما أدب المواضعة والاصطلاح فضربان :

أحدهما : ما تكون المواضعة في فروعه والعقل موجب لأصوله .

والثاني : ما تكون المواضعة في فروعه وأصوله وهي ثمانية .

في الكلام والصمت .

وفي الصبر والجزع .

وفي المشورة .

وفي كتمان السر .

وفي المزاح والضحك .

وفي المروءة.

وفي الطيرة والفال .

وفي الآداب العامة [1]

يحدثنا الماوردي مبيناً شرف النفس وأنها أحد أسباب علو الهمة فيقول :

والداعي إلى استسهال علو الهمة شيئان : علو الهمة وشرف النفس .

وأما شرف النفس فإن به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهي به عارفة ، ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة لأنها عليه غير مطبوعة ، وله غير ملائمة ، فتصير منه أنفر ، ولضده الملائم آثر ، وقد قيل : ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه ، وإذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة ، وفي الفضائل راغبة ، فإذا مازجها صارت طبعاً ملائماً فتما واستقر فأما من منى بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضه لأمر أعوزته آلته ، وأضدته جهالته فصار كضرير يروم تعلم الكتابة ،

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ، ص١٩٧ وما بعدها .

وأخرس يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزاً ، والطلب إلا عوزاً ، فأما شرف النفس إذا تجرد عن علو الهمة فإن الفضل به عاطل ، والقدر به خامل ، وهو كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل ، تضيع قوته بكسله وجلده بفشله .

ويقول : وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لأن من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا إلى طلب ما لا يستحقه ، ومتخطياً إلى التماس ما لا يستوجبه ، ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك ما لا يستحق ومقصر عما يجب له [1] .

ويقرر الماوردي ويؤكد على ضرورة محاسبة الإنسان لنفسه وعليه أن يتصفح أحوال نفسه فيقول : ثم عليه أن يتصفح في ليلة ما صدر من أفعال نهاره فإن الليل أحظر للخاطر ، وأجمع للفكر ، فإن كان محموداً أمضاه ، وأتبعه بما شاكله وضاهاه ، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن ، وانتهى عن مثله في المستقبل ، فإنه إذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال :

إما أن يكون قد أصاب فيها الغرض المقصود بها .

أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير موضعها .

أو يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها .

أو يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها .

وهذا التصفح إنما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الإصابة وينتهز به استدراك الخطأ وقد قيل : من كثر اعتباره قل عثاره .

وكما يتصفح أحوال نفسه فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فإن ظفر بصواب وجده من غيره أو أعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به ، فإن السعيد من تصفح أفعال غيره فاقتدى بأحسنها وانتهى عن سيئها .

---

(١) المرجع السابق : ص٢٧٨ وما بعدها

فالسعيد من وعظ بغيره .

إن السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر[1]

ويقرر الماوردي أن للنفس حالتين : حالة استراحة إن حرمتها إياها كلت ، وحالة تصرف إن أرحتها فيها تخلت ، فالأولى بالإنسان تقدير حالية ، حال نومه ودعته ، وحال تصرفه ويقظته ، فإن لهما قدراً محدوداً ، وزماناً مخصوصاً ، يضر بالنفس مجاوزة أحدهما وتغيير زمانهما .

فقد روى : نومه الصبحة معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منسأة للحاجة .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : النوم ثلاثة نوم الخرق وهي الصبحة ، ونوم خلق وهي القائلة (القيلولة) ونوم حمق وهو العشي . وفي منثور الحكم قيل: من لزم الرقاد عدم المراد .

فإذا أعطى النفس حقها من النوم والدعة ، واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها وينبغي أن يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فإن حاجة الإنسان لازمة[2] .

قواعد السلوك في فكر الماوردي :

من خلال عرضنا لماهية الخلق وأنه حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية ، يبدو لنا أن الخلق في حقيقته حالة باطنية ، أو أنه أمر داخلي تشتمل عليه النفس ، وصفة تقوم بها فتطبعها بطابع معين ، يميل بها إما إلى فعل الخير وإما إلى فعل الشر ، إلا أن أفعال الإنسان الظاهرة تختلف كل الاختلاف عن هذا الأمر الباطن فالخلق في مفهومه شيء والفعل الذي من شأنه أن يصدر عنه ويكون مظهراً له شيء آخر ، وهذه الأعمال الظاهرة هي التي

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٣١٢ – ٣١٣ .
(٢) المرجع السابق : ص٢١٢ – ٢١٣ .

يطلق عليها علماء الأخلاق اسم (السلوك) ، وهي لا تسمى سلوكاً إلا إذا كانت صادرة عن إرادة ، أما إذا صدرت عن المرء من غير إرادة لها أو تفكير فيها فإنها حينئذ لا تسمى سلوكاً ، وإنما تكون تصرفاً تدفع إليه الغرائز التي يشترك فيها الإنسان والحيوان على السواء .

ومن ثم اصطلح علماء الأخلاق على استعمال كلمة السلوك في الدلالة على الأعمال الظاهرة للإنسان ، كما اصطلحوا على استعمال كلمة الخلق في الدلالة على أعماله الباطنية ، ووضعوا للأول تعريفاً يتفق وإنسانيته فقالوا : إن السلوك هو أعمال الإنسان الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة فالعلاقة بين السلوك والخلق هي علاقة الدال بالمدلول أو الأثر بالمؤثر [1] .

وكمال الإنسان الفاضل في صدور أفعاله عن روية وتمييز وترتيبها بحسب ما يوجبه العقل والشرع الإلهي ، ومن ثم عنى الماوردي بأساسيات السلوك الخلقي وهي قواعد لابد منها ليتم أدب وتهذيب وتربية النفس الإنسانية على القواعد الأخلاقية القويمة .

ووجدناه – أيضاً – قسم الأدب إلى نوعين :

الأول : أدب الرياضة والاستصلاح لابد للإنسان من الالتزام بها .

والثاني : الآداب الاجتماعية والتي سماها الماوردي تحت عنوان أدب المواضعة وهي مجموعة الآداب الاجتماعية وهي مبنية على قواعد لابد من الالتزام بها . ونلمس من خلال تأملنا في النتاج الفكري ولا سيما الأخلاقي .

إنه عنى بهما الخاصة والعامة من الناس ، فنجده في كتابه (أدب الدنيا والدين) يتجه لمجموع الأمة الإسلامية ، وفي كتابه (تسهيل النظر وتعجيل الظفر) يتجه للملوك وذوي الإمرة والرياسات ، والسمة العامة في هذا النتاج الفكري ينصح الرعية بالتزام هذه الأخلاق والتحلي بها .

---

(١) المقدمة في علم الأخلاق : للدكتور محمود حمدي زقزوق ، ص٣٣ ، بدون تاريخ .

فيقول الماوردي : أن شريف الأفعال لا يتصرف فيه إلا بشريف الأخلاق سواء كانت طبعاً أو تطبعاً ، وهذه تعد قاعدة هامة من ابرز القواعد الأخلاقية ثم يذكر بعد ذلك تأكيداً لهذا قوله إن الله تعالى نبه على ذلك بقوله لنبيه (ﷺ) : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لأن النبوة لما كانت أشرف منازل الخلق لاستعمالها على مصالح الدين والدنيا ندب الله تعالى لها من قد أكمل فضائل الأخلاق وحاز أشرف الأعراق ولذلك قال (ﷺ) : بعثت بمكارم الأخلاق [1].

ولأهمية أن يكون الملوك وذوي الإمرة على هذا النهج الأخلاقي ليسوس الرعايا بآلته ويباشر التدابير بصناعته فلذلك كان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم أحق من تكاملت فيهم فضائل الأخلاق طبعاً وتطبعاً وأولى من صدرت عنهم محاسن الأفعال سجية وتصنعاً لأنهم رعاة مطاعون ، ودعاة إلى الحق مجابون ، ليكون الأفضل سائساً للمفضول ، والأعدل مقوماً للجهول ، فيجتذبهم بكمال فضائله إلى الإقتداء بأخلاقه وطرائقه ، فأكثر الرعايا أتباع لأمرائهم وملوكهم في الخير والشر والجهل والجد والهزل وفي هذا روي : اثنان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس ، العلماء والأمراء [2] .

ومن أبرز المؤسسات والقواعد العامة التي يقوم عليها السلوك الأخلاقي كما يراه الماوردي :

أولاً : ضرورة طهارة النفس ورياضتها ومراعاة أخلاقها ، وعدم إحسان الظن بالنفس حتى لا تغفل فيقول في هذا الشأن : أن لا يسبق إلى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوئ أخلاقه ، لأن النفس بالشهوات آمرة وعن الرشد زاجرة وإذا كان الظن بها ذريعة إلى تحكيمها ، وتحكيمها داع إلى سلاطتها ، وفساد الأخلاق بها فإذا صرف حسن الظن عنها ، فوسمها بما هي عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها [3] .

---

(١) تسهيل النظر : للماوردي ص٤٤.
(٢) المرجع السابق : ص٤٥ .
(٣) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٢٠٠ ، وتسهيل النظر : للماوردي ص ٤٨ : ٤٩ .

ثانياً : تجنب الكبر والإعجاب بالنفس والتزام الصدق والوقار والصمت وغيرها من الفضائل .

ثالثاً : الأخلاق كل لا يتجزأ فما يؤمر به الملوك وذوي الإمرة والسلطان ليلتزم به ، يؤمر به أفراد الأمة كلها ، والمتأمل في نتاج الماوردي في هذا الصدد أنه حين كان يوجه نصحه لأفراد الأمة يفصل تفصيلاً ويدعم قوله بالعديد من الحكم والأمثال والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ، وحين يوجه نصحه لذوي الإمرة والملوك يوجز إيجازاً مع ذكر أمثلة وشواهد من واقع عصره .

رابعاً : أن سياسة النفس أخلاقيا منوطة بالإنسان واختياره فهي أكثر من أي شيء ، ولذا نراه يعول على الإنسان في إصلاح أخلاقه بالدرجة الأولى ، وفي هذا المجال يعول على القدوة ، وهذا ظاهر تماماً في حديثه عن أخلاق الملوك والرؤساء فصلاحهم صلاح لرعيتهم .

خامساً : أن شريف الأفعال يدل على شريف الأخلاق فكل من هو شريف في فعله فهو شريف في أخلاقه فالسلوك دال على الخلق .

الخلق الحسن في فكر الماوردي :

لقد قرر الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين) أهم الآثار الواردة في حسن الخلق ومدحه من هذه الآثار المتنوعة من السنة النبوية وبعض أقوال وحكم من البلغاء والأدباء وغيرهم واستهلها بقوله : روي في الأثر : أن الله تعالى اختار لكم الإسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فإنه لا يكتمل إلا بها .

وفي رواية : حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعـــمار .

وفي رواية : أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون .

وفي رواية : بينت بعض أوصاف أهل الجنة ، كل هين لين سهل طلق .

وقال بعض الحكماء : من ساء خلقه ضاق رزقه .

وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوأ الدواء ؟ قالوا بلى ، قال : الخلق الدنيء واللسان البذيء .

وقال بعض البلغاء : الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة ، والسيء الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء .

وقال الماوردي : إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه ، وقل معادوه فتسهلت عليه الأمور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب .

ثم بين سمات صاحب الخلق الحسن فقال : وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة ، لين الجانب ، طلق الوجه ، قليل النفور ، طيب الكلمة .

ثم أجلى الماوردي أن الخلق قد يتغير إلى شراسة وبذاء لأسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة ، والوطاءة غلظة ، والطلاقة عبوساً .

فيقول : ولما ذكرنا من هذه الأوصاف حدوداً مقدرة ومواضع مستحقة فإن تجاوز بها الحد صارت ملقاً ، وإن عدل مواضعها صارت نفاقاً ، والملق ذل ، والنفاق لؤم ، وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا أثر مشكور .

قال سعيد بن عروة : لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر أحب إلى من أن أكون ذا وجهين ، وذا لسانين ، وذا قولين مختلفين .

ثم يقول الماوردي مبيناً تغير حسن الخلق وبواعثه ودوافعه الدالة عليه :

(وربما تغير حسن الخلق والوطأة إلى الشراسة والبذاءة لأسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطأة غلظة والطلاقة عبوساً) فمن أسباب ذلك :

الولاية التي تحدث في الأخلاق تغيراً وعلى الخلطاء تنكراً ، إما من لؤم طبع ، وإما من ضيق صدر .

ومنها : العزل ، فقد يسوء منه الخلق ، ويضيق به الصدر إما لشدة اسف أو لقلة صبر ، وكلاهما ضعف أخلاقي .

ومنها : الغنى ، فقد يتغير به أخلاق اللئيم بطرا ، وتسوء طرائقه أشرا وبحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر .

ومنها : الفقر ، فقد يتغير به الخلق إما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفاً على فائت الغنى .

ومنها :الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا تقوى على صبر. وقد قيل : الهم كالسم، والحزن كالداء المخزون في فؤاد المحزون .

ومنها : الأمراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الأخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال .

ومنها : علو السن وحدوث الهرم لتأثيره في آلة الجسد كذلك يكون تأثيره في أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال فكذلك تعجز النفس عن احتمال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه .

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاماً ، ومنها سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحدث نفوراً عن المبغض ، فينزل إلى سوء خلق يخصه دون غيره ، فإذا كان سوء الخلق حادثاً بسبب كان زواله مقروناً بزوال ذلك السبب ثم بالضد [1] .

الإنسان الفاضل في فكر الماوردي :

يقرر الماوردي من خلال نتاجه العلمي وفكره الأخلاقي أن الاختيار الأخلاقي مهم ولكن لابد من توافر الفضائل عند الإنسان لتتغلب على الرذائل حتى يكون لجهاد النفس ذلك المعنى الكبير الذي يغلب فيه الإنسان فضيلة على رذيلة ، إن الاختيار الصحيح يعني تربية صحيحة .

---

(١) أنظر أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٢٠٧ وما بعدها .

فيقول مبيناً الفهم العام للإنسان الفاضل : الفاضل من غلبت فضائله رذائله ، فقدر بوفور الفضائل على قهر الرذائل ، فسلم من شيمة النقص وسعد بفضيلة التخصيص ولذلك قال (ﷺ) : "أول ما تبتدئون به من جهادكم جهاد أنفسكم" [1].

ويرى أن للفضائل أوائل وأواخر ، وأولها : العقل "لأن العقل أصل الفضائل بحدوثها عنه وتدبيرها به ، إذ أنه القوة المرجحة للفضيلة واختيارها" وآخرها : العدل لأنه نتيجة الفضائل لأنها مقدورة به فلذلك جاء آخرها [2] .

ورغم ذلك فهما قرينان مؤتلفان ، ولذا فكل واحد منهما محتاج للآخر بالاضطرار وما سوى العقل والعدل من فضائل واسطة بينهما ، العقل يدبرها ، والعدل يقدرها .

كما أن الماوردي يقرر بأن العقل أساس الفضائل ، وفي فضل العقل يقول : أعلم أن لكل فضيلة أسا ، ولكل أدب ينبوعاً ، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل ، الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً ، وللدنيا عماداً فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، وألف به بين خلقه ، مع اختلاف هممهم ومآربهم ، وتباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تعبدهم به قسمين : قسماً وجب بالعقل فوكده الشرع وقسماً جاز في العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لهما عماداً [3] .

ويقول – أيضاً – : بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات ، وقد ينقسم إلى قسمين : غريزي ومكتسب ، فالغريزي هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه إلى زيادة ولا يقصر عنه إلى نقصان وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان ، فإذا تم في الإنسان سمي عاقلاً وخرج به إلى حد الكمال [4] .

---

(١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر : للماوردي ص٧ .
(٢) المرجع السابق، ص١٢ : ١٣ .
(٣) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٥ .
(٤) المرجع السابق ، ص٦ .

ثم يذكر الماوردي أقوال العلماء في تعريف العقل ويقوم بنقضها ثم يختار تعريفاً يراه أقرب للقبول حيث يقول (واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى : فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ... من قال بهذ اختلفوا في محله فقالت طائفة منهم : محله الدماغ وقالت طائفة منهم : محله القلب وهذا القول فاسد من وجهين : أحدهما أن الجواهر متماثلة فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها ما يوجبه بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني : أن الجوهر يصلح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهراً لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل .. وقال آخرون العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فبعيد عن الصواب من وجه واحد وهو أن الإدراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه . وقال آخرون العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الإجمال وتناوله من الاحتمال وقال آخرون وهو القول الصحيح أن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وهو نوعان أحدهما ما وقع من درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس فأما ما كان واقعاً من درك الحواس فمثل : المرئيات ، والأصوات ، والطعوم ، والروائح ، والأجسام .. وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود وعدم ، وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن المحال اجتماع الضدين .. فإذا صار عالماً بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل)[1] وما ذهب إليه الإمام الماوردي في تعريفه للعقل هو عين ما ذهب إليه علماء الأشاعرة كالإمام الجويني والإمام الرازي وغيرهما : يقول الجويني (العقل علوم ضرورية والدليل على أنه من العلوم الضرورية استحالة الاتصاف به مع تقدير الخلو عن جميع العلوم)[2] ويقول الإمام الرازي (إن العقل الذي هو مناط التكليف هو العلم بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات لأن العقل لو لم يكن من قبيل العلوم يصح

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص ٧ .

(٢) الإرشاد : للإمام الجويني ، ص١٥ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة – سنة ١٩٥٠ .

انفكاك أحدهما عن الآخر لكن محال لاستحالة أن يوجد عاقل لا يعلم شيئاً البتة أو عالم بجميع الأشياء ولا يكون عاقلاً)[1].

وقد جاءت السنة النبوية بما يؤيد رأي الماوردي ، فقال (ﷺ) : " العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل" ، وكل من نفى أن يكون العقل جوهراً أثبت محله في القلب لأن القلب محل العلوم كلها . قال تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ...) فدلت هـذه الآية على أمرين : أحدهما : أن العقل علم ، والثاني : أن محله القلب . هذا فيما يتعلق بالعقل الغريزي .

وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السـياسة وإصابة الفكرة وليس لهذا حد لأنه ينـمو إن استعمل ، وينقص إن أهمل ، ونماؤه يكون بأحد وجهين : إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد من شهوة ، وقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة .

فإذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء ، بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الإطلاق ، في الرجل الفاضل بالاستحقاق)[2].

ثم يقول وأعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لأنه نتيجة منه ، وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل ، كالأنوك – مثل الأحمق لفظاً ومعنى – الذي لا تجد له فضيلة ، والأحمق الذي قلما يخلو من رذيلة[3] .

ويقرر الماوردي – مثلما أكد بعض الأدباء العقل وسماته وما فيه من فضائل ، والأحمق وما فيه من رذائل فيقول : وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه

---

(١) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين : للإمام الرازي ، ص ١٠٤ .
(٢) أدب الدنيا والدين : للماوردي ، ص ٧ : ٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ : ١٥ .

من الفضائل ، والأحمق بما فيه من الرذائل ، فقال : العاقل إذا والى بذل في المودة نصرة ، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره ، فيسعد مواليه بعقله ، ويعتصم معاديه بعدله ، إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر ، وإن أساء إليه مسيء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو .

والأحمق ضال مضل ، إن أونس تكبر ، وإن أوحش تكدر ، وإن استنطق تخلف ، وإن ترك تكلف ، مجالسته مهنه – نوع من الحقارة – ومعاتبته محنة ، ومحاورته تغر ، وموالاته تضر ، ومقاربته عمى ، ومقارنته شقا ، وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل ، والأحمق يسيء إلى غيره ، ويظن أنه قد أحسن إليه فيطالبه بالشكر ، ويحس إليه فيظن أن قد أساء إليه فيطالبه بالوتر – الحق والبغض والعداوة – فمساوئ الأحمق لا تنقضي ، وعيوبه لا تنتهي[1].

ويقرر الماوردي أنه إذا كانت النفس الإنسانية زكيه صافية منذ المنشأ تهيأت للفضائل لتعمل بها ، وإن كانت خبيثة تهيأت للرذائل ، " وصار ما وافقها منهما سهلاً عليها في سرعة انفعاله بحكم المناسبة ، وما خالفهما صعباً عليها في تأخر انفعاله بحكم المنافرة ، لأن موافقة الأشكال مركوزة في الطباع "[2].

ويبين الماوردي – أيضاً – في فكره الأخلاقي أنه إذا كان " للفضائل بدايات ونهايات فإن للرذائل أوائل وغايات هي أواخرها ، أولها : الحمق وآخرها الجهل ، وهناك فوارق بينهما ، ومن يتمثل فيه الحمق أو الجهل فهو إنسان غير فاضل ، وكذلك ما بينهما من رذائل " [3] ثم يجلي الفضيلة في فهمها العام فهي كما يقول : توسط محمود بين رذيلتين مذمومتين من نقصان يكون تقصيراً ، أو زيادة تكون سرفاً ، فيكون فساد كل فضيلة من طرفيها .

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص ١٥ : ١٦ .
(٢) تسهيل النظر وتعجيل الظفر : للماوردي ، ص ١٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ .

ويقول أيضاً : واختلف الناس في العقل المكتسب إذا تناهى وزاد ، هل يكون فضيلة أم لا ؟

فقال قوم : لا يكون فضيلة ، لأن الفضائل هيئات متوسطة بين رذيلتين ناقصتين كما أن الخير متوسط بين رذيلتين ، فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة ، وزيادة العقل تقضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم ، وقال آخرون وهو أصح القولين : زيادة العقل فضيلة ، لأن المكتسب غير محدود ، وإنما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصاً مذموماً ، لأن ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة نسب إلى التهور ، والسخي إذا زاد على حد السخاء نسب إلى التبذير ، وليس كذلك حال العقل المكتسب لأن الزيادة فيه زيادة علم بالأمور ، وحسن إصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن إلى ما يكون فضيلة لا نقص(١).

ومما سلف يمكن القول : إن الفضيلة في علم الأخلاق هي الغاية والهدف والمقصد ذلك لأن علم الأخلاق إنما يهدف في مجموعه إلى توضيح الفضيلة ، والترغيب فيها والحث عليها ، وإجلاء الرذيلة والنهي عنها واجتنابها .

ومن ثم فالفضيلة هي : تعود الإرادة تحقيق الخير واجتناب الشر في كل ما يصدر عنها من فعل أو قول أو اعتقاد(٢).

والفضيلة تعد من أهم المباحث النفسية والأخلاقية العامة ولأنها الغاية من تعلم علم الأخلاق وتعليمه فإن الماوردي قد عنى بها في مباحثه الفكرية .

والفضيلة حالة كمال للنفس تنالها إذا اعتدلت قواها فلم تجنح إلى الإفراط أو التفريط ، وإذا كان للقوة العاقلة سياسة القوتين الأخريين هذا الكمال إذا تم للنفس قربت من الله تعالى بالمرتبة طبعاً لا بالمكان وذلك السعادة ، وإذا كان من المعلوم أن للنفس ثلاث قوى ، كانت أمهات الفضائل أربعاً ، تنشأ ثلاثة منها من

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ، ص ١٣ .
(٢) دراسات في علم الأخلاق : د / محمود مزروعة ، ص ٦٢ .

اعتدال كل قوة من هذه القوى ، وتكون الرابعة بانسجام هذه القوى بعضها مع بعض حتى لا تبغي واحدة منها على الأخرى .

وهذه الفضائل التي هي جماع كل خير هي : الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة وكل فضيلة من هذه الفضائل تنتظم فضائل أخرى تنطوي تحتها .

فمن الحكمة يكون حسن التدبير وجودة الذهـن وثقابة الرأي وإصابة الظن ، ومن الشجاعة يكون الكرم والشهامة وكسر النفس والاحتمال وكظم الغيظ والحلم ، ومن العفة يكون الحياء والقناعة والورع والصبر ، والعدالة في أخلاق النفس وقواها يتبعها لا محالة العدل في المعاملة وفي السياسة وفي عامة الحالات ، والعدالة هي جماع كل فضيلة كما أن الجور جماع كل رذيلة وعلى هذا لا تكون العدالة واحدة من الفضائل الأربع بل تكون جملتها معاً[1] ولا تتحقق الفضيلة بفعل الخير مرة أو بصدور الخير عن الإرادة في وقت دون آخر ، ولكن كي يكون الإنسان متصفاً بالفضيلة لابد أن يكون متعوداً على فعلها ، وأن تصدر عنه الفضيلة صدوراً شبه آلي فلا يكفي في وصف الإنسان بالصدق أن يصدق في موطن ويكذب في أخر بل لابد أن يكون صادقاً في المواطن كلها ومثل هذا يقال في سائر الفضائل وجملتها ، فالمدار في وصف إنسان ما بفضيلة ما أن تكون هذه الفضيلة عادة له يلتزم فعلها ويجتنب ضدها ، وتعود الإرادة فضيلة من الفضائل إنما يأتي نتيجة التكرار ، ومن ثم عرف بعض الفلاسفة الفضيلة بأنها عادة فعل الخير ، والرذيلة عادة فعل الشر وهي عكس الفضيلة تماماً ولكن ما هي شروط الفضيلة ومميزاتها ؟

للفضيلة شروط يجب توافرها حتى يصبح أن يوصف الفعل بانه فضيلة حقاً وهذه الشروط هي :

أولاً : قدرة الفاعل على التمييز بين الفضيلة والرذيلة أو بين الخير والشر فالذي يعمل الخير ولا يدري أنه خير لا يقال عنه إنه فاضل ولا يوصف فعله بأنه فضيلة .

---

(١) فلسفة الأخلاق في الإسلام : د/ محمد يوسف موسى، ص١٥٢، ص١٥٣ .

ثانياً : ولكي يعد العمل فضيلة والعامل فاضلاً لابد أن تتجه نيته وقصده إلى الفضيلة .

ثالثاً لا يوصف المرء بفضيلة ما فعلها مرة أو عدة مرات بل لابد أن يتعود على فعلها وتكرارها وأن يستمر على التمسك بها دائماً .

نظرية (الأوساط) بين الفلاسفة الغربيين والإسلاميين

إذا كان علماء الإسلام كالإمام الماوردي والغزالي وغيرهما قد قالوا بمبدأ الوسطية وقد ذهب المعلم الأول – أرسطو – إلى أن الفضيلة وسط بين طرفين فهل يعني هذا أن الوسطية عندهم هي عين ما قال به أرسطو ؟

لا نستطيع الجواب على ذلك إلا بعد عرض نظرية الأوساط عند أرسطو ونعقبها بموقف علماء الإسلام ولا سيما الماوردي من هذه النظرية .

أولاً : نظرية الأوساط عند ارسطو :

يذهب أرسطو إلى أن الفضيلة وسط بين طرفين مرزولين أحدهما إفراط والآخر تفريط فمثلاً فضيلة كالشجاعة هي وسط بين إفراط هو التهور وتفريط هو الجبن . وفضيلة كالكرم أو السخاء هي وسط بين إفراط هو التبذير وتفريط هو التقتير وفضيلة كالعفة وسط بين إفراط هو الشره وتفريط هو الجمود [1] .

ويذهب الأستاذ يوسف كرم والدكتور عوض حجازي إلى أن الوسط عند أرسطو وسط اعتباري إضافي يتغير بتغير الظروف والأشخاص لا وسط حسابي ويستدلان على ذلك أن كلاً من الشجاعة والعفة والسخاء مثلاً يتفاوت الحد الوسط فيها بتفاوت الأفراد وظروفهم فإذا سخا الفقير بدرهم وعد ذلك جوداً بالنسبة إليه . لا يكون كذلك بالنسبة لغني كثير المال بل يعد ذلك بخلاً ونقصاً فالوسط اعتباري لا حسابي [2].

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية : للأستاذ يوسف كرم ص٢٤٨ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦م .

(٢) المرجع السابق ، في تاريخ الفلسفة اليونانية للدكتور عوض حجازي ، محمد السيد نعيم ، ص١٧٥ ط٢ .

بينما يرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أن الوسط عند أرسطو لا يمكن حمله على الوسط الاعتباري الإضافي لأنه لا يحل الإشكال بل يعقده فضلاً عن تباين الوسط المنطقي عن الوسط الأخلاقي والذي لم يقل به أرسطو وعلى هذا ففهم الوسط لابد أن يكون منطقياً حسابياً وإذا كان الأمر كذلك فإن الوسط ليس أعلى درجة من الإفراط بل الأخير أعلى منه [1] ، كما أن طبيعة الوسط الأرسطي (ينظر إليه بوصفه هو الآخر نقصاً بالنسبة إلى الطرف المفرط كما يعد إفراطاً إذا نظرنا إليه بالنسبة إلى الطرف المفرط فكيف يتحقق هذا إذن) [2] وكيف يقال عنه إنه فضيلة .

ويرى الدكتور بدوي أن تعيين الوسط الأرسطي أمر عسير التحقيق والتطبيق حيث يقول : (أما من ناحية تعيين هذا الوسط فالمشكلة أشد عسراً ذلك لأننا نجد أنه لا يمكن أن نتحدث عن وسط في الأشياء التي هي شر بذاتها فالزنا مثلاً أو الفحش أو السرقة ... الخ لا يمكن أن نتحدث فيها عن وسط مطلقاً وإلا فما هما الطرفان اللذان تعد السرقة أو الزنا وسط بالنسبة إليهما وكذلك الحال بالنسبة إلى الأشياء التي هي خير بذاتها مثال النظر العقلي الصرف فلا يمكن أن يقال عنها إنها وسط بين رزيلتين إحداهما تفريط في الفكر والأخرى إفراط فيه ففي الحالتين ... لا يمكن أن نعين الوسط بل لا يمكن إطلاقاً أن نتحدث عن وجود وسط بمعنى الخير ... فمن هنا يتبين أن فكرة الوسط عند أرسطو فكرة غامضة إن لم تكن متناقضة) [3]. هذا فيما يتعلق بنظرية الأوساط عند أرسطو .

ثانياً : الوسطية في الفكر الإسلامي :

الوسط في اللغة العربية قد يأتي صفة وإن كان أصله أن يكون اسماً من جهة أن أوسط الشيء فضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه كوسط الدابة للركوب خير من طرفيها لتمكن الراكب ومنه الحديث خيار الأمم أوساطها ... فلما كان وسط الشيء أفضله وأعدله جاز أن يقع صفة وذلك في مثل قوله

---

(١) أرسطو : للدكتور عبد الرحمن بدوي ص٢٦١ الناشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٣م.
(٢) المرجع السابق : ص٢٦٠ .
(٣) المرجع السابق : ص٢٦١ : ٢٦٢ .

تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ أي عدلاً فهذا تفسير الوسط وحقيقة معناه وأنه اسم لما بين طرفي الشيء [1] .

ويرى صاحب الكليات أن إطلاق الوسط على الخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي الإفراط والتفريط هو من باب الاستعارة [2] .

يقول صاحب التحرير : (والوسط اسم للمكان الواقع بين أمكنة تحيط به أو للشيء الواقع بين أشياء تحيط به وليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض عرفاً ولما كان الوصول إليه لا يقع إلا بعد اختراق ما يحيط به أخذ فيه معنى الصيانة والعزة طبعاً كوسط الوادي لا تصل إليه الرعاة والدواب إلا بعد أكل ما في الجوانب فيبقى كثير العشب والكلأ ... وأما إطلاق الوسط على الصفة الواقعة عدلاً بين خلقين ذميمين فيهما إفراط وتفريط فذلك مجاز تشبيه الشيء الموهوم بالشيء المحسوس ... وقد شاع هذا الإطلاقان حتى صار حقيقتين [3].

وقد ورد لفظ الوسط في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ (البقرة ١٤٣) وفسروه بالخيار والعدول أي أن الأمة الإسلامية خير الأمم وأعدلها [4] .

يقول الإمام الرازي : (واختلفوا في تفسير الوسط وذكروا أموراً أحدها أن الوسط هو العدل والدليل عليه الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى ... والقول الثاني أن الوسط من كل شيء خياره .. والقول الثالث أن الرجل إذا قال أن فلان أوسطنا نسباً فالمعنى أنه أكثر فضلاً وهذا وسط فيهم كواسطة القلادة ... والقول

---

(١) لسان العرب : لابن منظور جـ١٥ ، ص٢٠٨ ، دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م .
(٢) الكليات : لأبي البقاء الكفوي ص٩٣٨ مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨م .
(٣) التحرير والتنوير : للعلامة محمد الطاهر بن عاشور جـ٢ ص ١٥، ١٦ دار سحنون للنشر – تونس سنة ١٩٩٧م .
(٤) المرجع السابق : ص١٦ جـ٢ .

الرابع يجوز أن يكون وسطاً على معنى أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرط والغالي والمقصر في الأشياء [1] .

وعلى هذا فوسطية الإسلام تختلف تمام الاختلاف عن وسطية اليونان فضلاً عن ما في الثانية من تناقض .

فالوسطية التي قال بها اليونان ليست هي نهاية الكمال في الإسلام ومن ثم فالنصوص القرآنية تضرب بالوسطية اليونانية عرض الحائط من أجل تحقيق الكمال الإنساني الرفيع ولهذا تقرر مبادئ العفو والصفح والإحسان بل والإيثار والذي تعده الفلسفة اليونانية رذائل :

فالفضائل يجب أن تقاس بما تحققه للإنسانية – على مستوى الفرد والجماعة – من كمال والوسطية اليونانية قاصرة عن أن ترقى بالإنسانية إلى الكمال المنشود .

ومن هنا فإن سمات الفضائل في الإسلام كيفما نص عليها القرآن الكريم هي :

أن الفضيلة في القرآن التي تنهى صاحبها عن التزيد في حق نفسه وفي نفس الوقت تحض على الزيادة في حق الغير مخيرة المعاملة بالمثل دون نهي عنه أو تحريض عليه وهذا مستفاد من قوله تعالى ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ۞ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (الشورى ٤٢ :٤٤) ، وفي مواضع أخرى يضع القرآن الحكيم هذا التقسيم يقول سبحانه : ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ۞ إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ﴾ (النساء ١٤٨ – ١٤٩) ، فالنهي أولا عن تعامل الناس بالفاحش من القول لأنه يستوجب غضب

---

(١) التفسير الكبير : للإمام الرازي جـ٤ ، ص٨٨ ، دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٩٩٠م .

الله مع استثناء من كانت اساءته رداً لمظلمة ثم وضع الخطة الحميدة والفضيلة المندوب إليها وهي خطة العفو حتى يستحق مغفرة الله .

أما السمة الثانية فتتعلق بنفاذها في أعماق الضمير حتى يتشربها القلب فتصدر عنه بترحاب وطيب خاطر ومحبة مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات ٧ – ٨) وعلى العكس من ذلك فإن فاعل الخير المفتقد لأريحية النفس له ليس خليقاً بأن يسمى خيراً ويسجل القرآن الكريم هذه النظرات حيث يقول : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة ٩٨) ﴿ لاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (التوبة ٥٤)﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۞ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ (النجم ٣٤) [1] .

كما وضع الإسلام فلسفة إصلاح المجتمع وتقويمه على قاعدتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي لم تعرفه فلسفة اليونان ولا الفلسفات الحديثة .

وتطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له اتجاهان الأول اتجاه إيجابي والثاني اتجاه سلبي ، وكل منهما على مستوى الفرد والجماعة .

مثال الأول قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (لقمان١٧) هذا في الإطار الفردي أما في إطار الجماعة قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران ١١٠) وقوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات٩) .

---

(١) الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام : للدكتور مصطفى حلمي ص١٢٢ وما بعدها .

أما الاتجاه السلبي فإنه يتمثل في ما فعله رسول الله (ﷺ) مع الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وأمر المسلمين بمقاطعتهم وبين القرآن ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (التوبة ١١٨) [١] .

وهكذا يحدد القرآن الفضيلة ويبين أن الوسطية القرآنية غير الوسطية اليونانية والتي يقال إن علماء الإسلام قالوا بمبدأ الوسطية على نهج أرسطو أين هذه من تلك في مبدئها وغايتها ؟ .

أن الوسطية والتي قال بها الماوردي هي الوسطية الإسلامية النابعة من القرآن الكريم ونهج النبي العظيم .

والفضائل كثيرة ومتنوعة إلى فضائل شخصية (كالصبر والحلم وضبط النفس والشجاعة والصدق والإيثار وغيرها) ، وفضائل اجتماعية (كالعدل والرحمة والإحسان) ، والأولى تنظم حياة الفرد وتجعل قواه وملكاته في حالة تعادل وتوازن ، والثانية تجعل المرء في حالة وفاق مع غيره من الناس ، ولا انفكاك بين الأولى والثانية فبدون الفضائل الشخصية لا يمكن تحقيق الخير للمجتمع ، وبدون الفضائل الاجتماعية تلحق الأضرار والمفاسد بالأفراد فكل من النوعين على علاقة وثيقة بالآخر وإن اختص الأول بالأفـراد والثاني بالجـماعة [٢] .

ولقد تناول الإمام الماوردي جملة من الأخلاق العملية بالشرح والتوضيح ، من هذه الأخلاق والتي يراها أمهات الأخلاق العملية في نظرة ثلاثة (الحياء ، الحلم ، الصدق) .

لذلك يحتم على المقام أن أقف مع الإمام الماوردي لبيان هذه الأخلاق لنرى كيف عرضها الإمام الماوردي ومكانة تأثيرها في النفس وعلى النفس .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٤ .
(٢) دراسات في علم الأخلاق : د محمود مزروعة ص٦٣ : ٦٥ .

الحياء في فكر الماوردي :

من الأخلاق العملية التي حث عليها ورغب فيها الإمام الماوردي – وغيره من علماء الأخلاق – الحياء ، وهو سمة من سمات أهل الخير والفضل ، وشعبة من شعب أهل الإيمان ، وأورد آثاراً نبوية وحكم وأقوال بعض العلماء والأدباء والحكماء والبلغاء في هذا الصدد مبيناً أثره في النفس الإنسانية وأهميته وأنواعه ، وفي هذا يحدثنا فيقول :

وقال بعض الحكماء : من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه .

وقال بعض البلغاء : حياة الوجه بحيائه ، كما أن حياة الغرس بمائه .

وقال الماوردي : فسمة الخير : الدعة والحياء ، وسمة الشر القحة والبذاء .

وكفى بالحياء أن يكون على الخير دليلاً ، وكفى بالقحة والبذاء شراً أن يكون إلى الشر سبيلاً .

ثم قال : وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ، ولا زاجر عن محظور ، فهو يقدم على ما يشاء ، ويأتي ما يهوي .

وفي الخبر : الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار .

وفي رواية : إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

وعن أوجه الحياء وأنواعه يحدثنا الماوردي فيقول : وأعلم أن الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه :

أحداها : حياؤه من الله تعالى .

والثاني : حياؤه من الناس .

والثالث : حياؤه من نفسه .

فأما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره والكف عن زواجره .

وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح .

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات .

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة ، فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت أسباب الخير ، وانتفت عنه أسباب الشر وصار بالفضل مشهوراً ، وبالجميل مذكوراً ، وإن أخل بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص بإخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله [1] .

الحلم في فكر الماوردي الأخلاقي :

الحلم من الأخلاق التي حث عليها الماوردي في فكره الأخلاقي ورغب فيه لأنه إمساك النفس عن هيجان الغضب ، والتحلم إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج ، ولما كان الحلم من تأثير العقل وغير منفك عنه صار يعبر عن كل عقر ظهر فعلاً كما في قوله تعالى في ذم الكفار على سبيل التعجب منهم ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الطور ٣٢) .

وحلم الإنسان لا يتم إلا بإمساك الجوارح كلها : اليد واللسان عن الفحش ، والسمع عن استماعه اللهو ، والعين عن فضول النظر ، ومن صوره العفو والصفح ومخرجاه إلى الوجود ، أما العفو فهو ترك المؤاخذة بالذنب ، وأما الصفح فهو ترك التثريب .

وعن الحلم ومنزلته يقرر الماوردي مكانته مبيناً آثاره وأقوال العلماء فيه : روي أن جبريل عليه السلام نزل على النبي (ﷺ) فقال إني أتيتك يا محمد بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين [2] .

وفي رواية : إن الله يحب الحليم الحيي ، ويبغض الفاحش البذيء .

وفي رواية : من حلم ساد ومن تفهم ازداد .

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٢١١ وما بعدها .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : للإمام القرطبي جـ٤ ، ص٢٤٦ .

وقال بعض الأدباء : من غرس شجرة الحلم اجتنى شجرة السلم .

وقال بعض البلغاء : ما ذب عن الأعراض كالصفح والإعراض .

ثم قال الماوردي : فالحلم من أشرف الأخلاق ، وأحقها بذوي الألباب ، لما فيه من سلامة العرض ، وراحة الجسد ، واجتلاب الحمد .

قال الإمام على كرم الله وجهه : أول عوض الحليم عن الحلم أن الناس أنصاره .

وحد الحلم : ضبط النفس عن هيجان الغضب .

وهذا يكون عن باعث وسبب .

وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة :

أحدهما : الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة .

وقد قيل في منثور الحكم : من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال .

والثاني : القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة .

قال بعض البلغاء : أحسن المكارم عفو المقتدر ، وجود المفتقر .

والثالث : الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة .

قالت الحكماء : شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم .

والرابع : الاستهانة بالمسيء وذلك عن ضرب من الكمال والإعجاب .

والخامس : الاستجابة من جراء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة .

قال بعض الحكماء : احتمال السفيه خير من التحلي بصورته ، والإعراض عن الجاهل خير من مشاكلته .

وقال بعض الأدباء : ما أفحش حليم ولا أوحش كريم .

والسادس : التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التآلف .

حكى عن الأحنف بن قيس : قوله : ما عاداني أحد قط إلا وأخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال : إن كان أعلى مني عرفت له قدره ، وإن كان دوني رفعت قدري عنه ، وإن كان نظيري تفضلت عليه .

والسابع : استكفاف الباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم .

والثامن : الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس ، وربما أوجبه الرأي واقتضاء الحزم .

وقيل في منثور الحكم : الحلم حجاب الآفات .

والتاسع : الرعاية لبد سالفة ، وحرمه لازمة ، وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد .

وقيل في منثور الحكم : أكرم الشيم أرعاها للذمم .

والعاشر : المكر وتوقع الفرص الحقيقية وهذا يكون من الدهاء .

وقيل في منثور الحكم : من ظهر غضبه قل كيده .

وقال بعض الأدباء : غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله .

وقال بعض الحكماء : إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جواباً ، وأوجعته عقاباً فهذه أهم بواعث الحلم والأسباب الدالة عليه ، إلا أن هناك حالة يحمد فيها الغضب وهي ما يسميها بالغضب المحمود لدى الماوردي وهذه خاصة لديه .

أما الغضب المحمود لدى الماوردي فيقول : إن السكوت عن الإساءة في غير ما سبق يكون ذلاً ولم يكن حلماً ، لأن حد الحلم – كما سلف – ضبط النفس ضد هيجان الغضب ، فإذا فقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية .

وقد قالت الحكماء : ثلاث لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن : لا يعرفون الجواد إلا في العسرة ، والشجاعة إلا في الحرب ، والحلم إلا في الغضب .

وقال الشاعر :

ليست الأحلام في حال الغضب إنما الأحلام في حال الغضيب

وغيره قال :

من يدعي الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب

وآخر قال :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوة أن يكدرا

ومن فقد الشجاعة في الأشياء المغضبة حتى استوى حالتاه قبل الغضب فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والأنفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ بالثأر لأنها خصال مركبة من الغضب ، فإذا عدمها الإنسان هان بها ، ولم يكن لباقي فضائله في النفوس موضع ، ولا لوفور حمله في القلوب موقع .

قال المنصور : إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة .

وقال بعض الحكماء : العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم .

ثم يقول : وليس هذا القول إغراء بتحكم الغضب والانقياد إليه عند حدوث ما يغضب ، فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل ، أكثر مما يكسبه عدم الغضب من الفضائل ، ولكن إذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه ، كف ثورته بحزمه ، وأطفأ ثائرته بحلمه ، ووكل من استحق المقابلة إلى غيره ، ولا يعدم مسيء مكافئاً ، كما لن يعدم محسن مجازياً .

ثم يقول : فينبغي لذي اللب السوي والحزم القوي أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ، ويقابل عوادي شرته فيردها ليحظى بانجلاء الحيرة ، ويسعد بحميد العاقبة .

قال بعض الأدباء : في إغضائك راحة أعضائك [1] .

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٢١٥ وما بعدها .

ثم يبين الفرق بين الحزن وسببيه والغضب وسببه وأثر كل من الحزن والغضب على النفس الإنسانية فيقول الماوردي .

وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها ، وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها ، والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه ، والحزن يتحرك من خارج الجسد إلى داخله ، فلذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن ، وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه ، والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكمونه ، ولذلك أفضى الحزن إلى الموت ، ولم يفضي إليه الغضب فهذا فرق ما بين الحـــزن والغضـــب [1] .

ثم يحدثنا الماوردي عن كيفية تسكين الغضب فيقول :

وأعلم أن لتسكين الغضب إذا هجم أسباب يستعان بها على الحلم .

منها : أن يذكر الله عز وجل فيدعوه ذلك إلى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع إلى أدبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب .

ومنها : أن يتذكر ما يئول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام .

قال بعض الحكماء : احترس في غضبك من قولك أن تخطيء ، ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يخف ، فإن الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلماً .

وقيل : الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم .

وقال بعض الأدباء : إياك وعزة الغضب فإنها تفضي إلى ذل العذر .

قال بعض الشعراء : وإذا اعترتك في الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار .

ومنها : أن يذكر ثواب العفو وحسن الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذراً من استحقاق الذم والعقاب .

وفي الخبر : الخير ثلاث خصال فمن كن فيه استكمل الإيمان :

---

(١) المرجع السابق : ص٢١٩ .

من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق ، إذا قدر عفا .

ومنها : أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس إليه فلا يرى إضاعة ذلك بتنفير الناس عنه وبعدهم منه فكيف عن متابعة الغضب فيرغب في التآلف وجميل الثناء .

قال بعض البلغاء : ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم إزالة النعم [1] .

الصدق في فكر الماوردي (الأخلاقي) :

ومن الأخلاق التي دعا الماوردي للتحلي بها (الصدق) فقد حث عليه ورغب فيه ولإثبات مكانته ومنزلته استهل بنفي ضده وتقبيحه وهو الكذب المذوم من جهة الشرع والعقل ، أما من جهة الشرع فقد قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (آل عمران ٦١) . وقال سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (النحل ١٠٥) .

وروي عن النبي (ﷺ) أنه قال للحسن بن علي رضي الله عنهما : "دع ما يريبك إلا ما لا يريبك فإن الكذب ريبة والصدق طمأنينة" .

وفي رواية : "رحم الله امرأ أصلح لسانه ، وأقصر من عنانه ، وألزم طريق الحق مقوله ، ولم يعود الخطل مفصلة" .

قال ابن عباس رض الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ [2] . أي لا تخلطوا الصدق بالكذب .

وقيل في منثور الحكم :

الكاذب لص لأن اللص يسرق مالك ، والكذاب يسرق عقلك .

---

(١) أدب المبا والدين : للماوردي ص٢٢٠ وما بعدها .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : للإمام القرطبي ، جـ١ – ص٢٨ ، والنكت والعيون ، للماوردي ، جـ١ ، ص١١٢ .

الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة .

الصادق مصون جليل ، والكاذب مهان ذليل .

لا سيف كالحق ولا عون كالصدق .

وقال بعض الشعراء :

وما شيء إذا فكرت فيه	بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه	وأبعد بالبهاء من الرجال

وأما من جهة العقل فقد قال الماوردي : (الكذب جماع كل شر ، وأصل كل ذم لسوء عواقبه ، وخبث نتائجه ، لأنه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء ، والبغضاء تؤول إلى العداوة ، وليس مع العداوة أمن ولا راحة) . ولذلك قيل من قل صدقه ، قل صديقه [1] .

وبعد أن بين ذم الكذب والنفور منه والبعد عنه من الجهة الشرعية والعقلية مستدلاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ومدعماً قوله بأقوال من السلف الصالح وبعض الحكماء والبلغاء والأدباء والشعراء فنجده عرج لبيان مدلول الصدق والكذب والبواعث الدالة عليها فيقول الماوردي معرفاً الصدق بأنه : الإخبار عن الشيء على ما هو عليه [2] .

ثم بين مدلول الكذب فقال : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه [3] ثم أجلى الأسباب المؤدية والدالة عليهما بقوله :

لكل واحد منها – أي الصدق والكذب – دواع ، فدواعي الصدق لازمة ودواعي الكذب عارضة ، لأن الصدق يدعو إليه عقل موجب ، وشرع مؤكد ، فالكذب يمنع منه العقل ، ويصد عنه الشرع ، ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة حتى تصير متواترة ، ولم يجز أن تستفيض الأخبار الكاذبة لأن اتفاق

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ، ص٢٢٥ ، وما بعدها .
(٢) أدب الدنيا والدين : للماوردي ، ص٢٢٤ .
(٣) المرجع السابق .

الناس في الصدق والكذب إنما هو لاتفاق الدواعي ، فدواعي الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها لأن الدواعي إليه نافعة وليس في جاري العادة أن يتفق الجمع الكثير الذي لا يمكن موطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذباً وعلى دواع غير نافعة ، لذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم .

ودواعي الصدق :

منها : العقل لأنه موجب لقبح الكذب لا سيما إذا لم يجلب نفعاً ، ولم يدفع ضرراً ، والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسناً ، ويمنع من إتيان ما كان مستقبحاً .

ومنها : الدين الوارد باتباع الصدق وخطر الكذب لأن الشرع لا يجوز أن يرد بإرخاص ما حظره العقل ، بل جاء الشرع زائداً على ما اقتضاه العقل من خطر الكذب ، لأن الشرع ورد بحظر الكذب وإن جر نفعاً أو دفع ضرراً ، والعقل إنما حظر ما لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً .

ومنها : المروءة فإنها مانعة من الكذب ، باعثة على الصدق لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فأولى من فعل ما كان مستقبحاً .

ومنها : حب الاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قوله ، ولا يلحقه ندم ، ولذلك قيل : ليكن مرجعك إلى الحق ، ومنزعك إلى الصدق ، فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين .

وقال بعض الشعراء :

عود لسانك قول الصدق تحظ به ... إن اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له ... في الخير والشر فاحفظ كيف ترتاد

وأما دواعي الكذب :

فمنها : اجتلاب النفع واستدفاع الضرر ، فيرى أن الكذب أسلم وأغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفاعاً للمطمع ، وربما كان الكذب أبعد

لما يؤمل ، وأقرب لما يخاف ، لأن القبيح لا يكون حسناً ، والشر لا يصير خيراً ، وليس يجني من الشوك العنب ، ولا من الكرم الحنظل .

لذلك ورد عن النبي (ﷺ) أنه قال : تحروا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة ، وتجنبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة [1] قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لأن يضعني الصدق – وقلما يضع – أحب إلي من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل .

وقال بعض الحكماء : الصدق منجيك وإن خفته ،والكذب مرديك وإن أمنته .

وقال الجاحظ : الصدق والوفاء توءمان ، والصبر والحلم توءمان ، فبهن تمام كل دين ، وصلاح كل دنيا، وأضدادهما سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد .

ومنها : أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذباً ، وكلامه مستظرفاً فلا يجد صدقاً يعذب حديثاً يستظرف فيستحلى الكذب الذي ليست غرائبه معووزة ولا طرائقه معجزة ، وهذا النوع أسوأ حالاً مما قبل لأنه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة .

قال الجاحظ : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه .

وقال ابن المقفع : لا تتهاون بإرسال الكذب من الهزل فإنها تسرع إلى إبطال الحق .

ومنها : أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه ، فيسمه بقبائح يخترعها عليه ، ويصفه بفضائح ينسبها إليه ، ويرى أن معرة الكذب غنم ، وأن إرسالها في العدو سهم وسم ، وهذا أسوأ حالاً من النوعين الأولين لأنه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر ، ولذلك ورد الشرع يرد شهادة العدو على عدوه .

ومنها : أن تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها ، فصار الكذب له عادة ، ونفسه إليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه ، لأن العادة طبع ثان ، ولذلك قال بعض الحكماء : من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه .

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ص٢٢٥ وما بعدها .

وبعد ذكر الماوردي وإجلائه لدواعي كل من الصدق والكذب فنجده عرج لبيان علامات وإمارات الكذب فقال : وأعلم أن الكذب قبل خبرته أمارات دالة عليه .

منها : أنك إذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورد فرق عنده .

ومنها : أنك إذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه .

ومنها : أنك إذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين .

ومنها : ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لأن هذه أمور لا يمكن للإنسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من إثارتها .

وإذا اتسم بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة ، وأضيفت إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه فيجمع بين معرة الكذب منه ، ومضرة الكذب عليه .

قال الشاعر :

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه ثم انه إن تحرى الصدق اتهم وإن جانب الكذب كذب

فإذا سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه حتى لا يعتقد له حديث مصدق ولا كذب مستنكر

قال الشاعر :

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد يصدق في شيء وإن كان صادقاً
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتراه ذا حفظ إذا كان حاذقاً[1]

---

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردي ، ص٢٥٦ ، ٢٥٧ بتصرف يسير .

الخاتمة

أهم النتائج والتوصيات

بعد هذه الجولة مع الإمام الماوردي يمكن أن نستخلص النتائج التالية :

أولاً : إن الإمام الماوردي مع تأثره بأحداث عصره وانفعاله به لم يركن إلى جهة التمذهب والذي كان من أهم سمات عصره ولكنه كان متزناً في مناقشته لقضايا الإسلام ويتمثل ذلك التوازن في شخصيته وفي نتاجه الفكري والأخلاقي بصفة خاصة . فمثلاً بالنسبة له فإنه لم يركن إلى الانصراف إلى الدنيا والانغماس في ملذاتها – مع توفر الأسباب والدواعي – كما كان متفشياً جداً خاصة عند السلطة السياسية وفي نفس الوقت لم يركن إلى الزهد والذي كان متفشياً أيضاً لدى بعض الصوفية بل إنه كان متزناً حتى في سلوكه بين عقيدته وأفعاله (الله والإنسان) كان متوازناً بين الدنيا والآخرة ويذكر أنه من أعظم الأمور خطراً وقدراً وأعمها نفعاً ورفداً ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والأولى لأنه باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة .

وهو بهذا يمثل وسطية الإسلام الممثلة في قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص ٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ (الذريات ٥٦ – ٥٨) .

ثانياً : إن الماوردي في فكره الأخلاقي لم يرفع جانب العقل على حساب الوحي الإلهي شأن بعض الفلاسفة كما أنه لم يحط منه شأن بعض الصوفية بل إنه وازن بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني حيث يرى أن الله جعل العقل للدين أصلاً وللدنيا عماداً وأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بكماله وألف به بين خلقه مع اختلاف مذاهبهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما

تعبدهم به قسمين : قسماً وجب بالعقل فأكده الشرع ، وقسماً جاز في العقل فأوجبه الشرع فكان لهما عمادا .

فإذا كان الوحي الإلهي أساس الإسلام وعليه قام ، فالذي يفهم عنه هو العقل ، ومن ثم أعطى الماوردي العقل أهمية وذكر أن آفة الإنسان في اتباع هواه .

ثالثاً : إن فلسفة الأخلاق في الفكر الإسلامي وإن كانت لم توجد بشكل مستقل إلا بعد عصر الترجمة إلا أن مسائلها وأصولها موجودة مع وجود كلمة الوحي الأولى وإن لم تكن مستقلة شأنها شأن علم النحو والفقه والتفسير والقراءات الخ ، ومن أراد الاستيثاق فعليه الرجوع إلى القرآن والسنة والاطلاع على (دستور الأخلاق في القرآن) للدكتور محمد عبد الله دراز .

رابعاً : إن الإمام الماوردي عرض في نتاجه الفكري الأخلاقي لأمهات المسائل الأخلاقية كمسألة الخير والشر والفضيلة والرذيلة وحرية الإرادة وفطرية الأخلاق واكتسابها مبيناً أيسر الطرق للتحلي بمكارم الأخلاق موضحاً علة ارتكاب الرذائل وكان اعتماده الفكري على ما فهمه من آيات القرآن الكريم مستأنساً بما ورد في السنة النبوية من آثار مع تأثره بالثقافة العصرية والتي لا تتعارض مع مبادئ الإسلام وتعاليمه .

خامساً : إن الإمام الماوردي لم يقف في حديثه عند الحدود النظرية شأن القدامى وبعض المعاصرين له – وإنما كان دائماً وأبداً يهدف إلى العمل – فالعمل عنده هو الغاية التي ينشدها لكن هذه الغاية لا تتحقق إلا من خلال النظر ، إذن : فالنظر عنده وسيلة لا غاية وهنا يختلف الإمام الماوردي عن السابقين وبعض المعاصرين له والذين يرون أن العلم النظري خاص بأصحاب العقول وأن الجانب العملي هو من عمل العبيد والرقيق ، ومما لاشك فيه أن ما ذهب إليه الماوردي من المزاوجة بين النظر والعمل ، فالنظر كالأساس والعمل كالبناء ، وكما لا ينفع بناء بلا أساس كذلك لا ينفع عمل بلا نظر والأساس دون البناء لا فائدة منه ، أقول ما ذهب إليه الماوردي من المزاوجة بين النظر والعمل هو

ما دعا عليه الإسلام وما دفع إليه القرآن ، فالقرآن الكريم وكذا الحديث النبوي ، قد ربطا في كثير من المواضع بين الإيمان – النظر – والعمل الصالح .

سادساً : إن الإمام الماوردي وإن بدا أنه يقلد السابقين له في بعض المسائل ، فإن ذلك ليس تقليداً ولا محاكاة بل إن ذلك ما أدى إليه اجتهاده . فمثلاً كلامه في الفضيلة وأنها وسط بين رذيلتين ، ليس ذلك تقليد للسابقين وإنما فهم ذلك من آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ إنها وسطية الإسلام الواقعية والتي هي بمنأى عن وسطية اليونان النظرية .

وأخيراً : أوصي إخواني وزملائي أن يولوا وجوههم شطر تراث علمائنا الأجلاء ليبرزوا دورهم فالإمام الماوردي أحد هؤلاء الأعلام ولا يكفي مثل هذا البحث لإبراز الجانب الأخلاقي لديه كما أنه متعدد الجوانب الفكرية ، فهناك الجانب التربوي وهناك الجانب العقدي وهناك الجانب السياسي .. الخ .

أسأل الله التوفيق والسداد ....

الباحث

راشد محمد راشد سليمان